



فتح الثورة السورية في مارس/ آذار 2011 الآفاق الواسعة أمام احتمال إمساك الشعب السوري بمصيره ومصير بلده، يعيد فيها ترتيب دور سوريا الاستراتيجي في محيطها الإقليمي، وينظم إدارة الحكم والخيارات الإقليمية والدولية بطريقٍ حديثٍ عقلانية، ويقيم علاقاته في الإقليم العربي على أساس التكافل والتضامن على حساب سياسة النظام التي ارتكزت على إرتعاب دول الجوار وابتزازها، بدلاً من أن يقيم علاقة توازن مصالح معها، فعمل من أجل ذلك، على تنمية قدرته المخابراتية وعلاقاته الواسعة مع قوى الإرهاب والمنظمات المتطرفة، لتوظيفها في مجال تخريب مصالح دول الجوار والأمن القومي، إذا لم تقدم ما تيسر لتجنب شروره. هذا ما فعله نظام الأسد الابن والأب في الأردن ولبنان والعراق، ومع الفلسطينيين أيضاً، حتى بعد أن رحل ياسر عرفات إلى داخل فلسطين لم يتخلص من تهديده وتأمره، فحوّل سوريا إلى حاضنة للطرف والإرهاب، بارتكازه على صناعة القوى التخريبية، وامتداد علاقاته بها في بلدان عديدة، حتى غدت دمشق محطة لقوى إرهابية كثيرة لها عداوتها مع دول الجوار.

ارتکز هذا الدور الاستراتيجي الإرتعابي لنظام الأسد في المحيط، أساساً، على نهج ثابتٍ للإرتعاب والسيطرة في الداخل السوري على الشعب ومقدراته، فليس من العيب أن أحد المفكرين السوريين أطلق على بلده اسم "مملكة الصمت". ويقصد مملكة القبور، فقادت الثورة السورية ضد هذا النمط التسلطي الإرتعابي للسلطة، وعلى استراتيجيتها الإقليمية القائمة على التآمر والتهديد الإرهابيين، لا على التعاون الأخوي وتكافؤ المصالح، فرفعت الجموع، في مارس/ آذار 2011، شعار الحرية والكرامة، وقدمت باسم "التنسيقيات" مشروعًا للتحول الديمقراطي، غير أن السلطة ردت بالنار على المتظاهرين وشعاراتهم، ورفضت أي تسويةٍ تفضي إلى التغيير الديمقراطي، فانفتح الباب على مصراعيه أمام صراع عارم (على سورية)، بين نهج الثورة الذي يهدف إلى تغيير قواعد السلطة وتحويلها باتجاه الديمقراطية ونهج تسلطي يهدف إلى إبقاء الحال على ما هو عليه.

وقد جُنَاحَ النَّفَرُ كُلُّ أَدْوَاتِهِ فِي الْقَتْلِ وَالاعْتِقَالِ وَالتَّعْذِيبِ وَالتَّشْرِيدِ، مُسْتَخْدِمًا كُلَّ الأَسْلَحَةِ الْمَتَاحَةِ لِدِيهِ، وَقُوَّةٌ تَحْالِفَهُ
الْمُسْتَقْرِئُ مَعَ إِنْدِرَانِ، الْمُسْتَنْدِ، فِي أَحَدِ وُجُوهِهِ، إِلَى نَزْوَ طَائِفِيِّ اسْتِبْدَادِيِّ، وَاسْتَرْجَعَ رَصِيدَهُ الْكَبِيرَ مِنَ الْعَالَمِ مَعَ
الْجَاهِدِيْنَ الْمُتَطَرِّفِيْنَ" الَّذِينَ اسْتَخْدَمُهُمْ سَابِقًا فِي لَبَّانِ (شَاكِرُ الْعَبَّاسِيِّ مُثَلًا)، وَفِي الْعَرَاقِ بِكَثَافَةٍ، وَأَطْلَقَ بَعْضَهُمْ مِنَ
السَّجْوَنِ، فِي مَحاوِلَةٍ مِنْهُ، كَيْ يَطْغِي صَوْتُهُمُ الطَّائِفِيِّ التَّكْفِيرِيِّ عَلَى صَوْتِ الثَّوْرَةِ الْدِيمُقْرَاطِيَّةِ. وَسَلَحَ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ
الْحَزَبُ الْدِيمُقْرَاطِيُّ الْإِتَّحَادِيُّ (الْكُرْدِيُّ)، مِنْ جَمَاعَةِ أَوْجَلَانِ) لِيَقْفِي ضَدَّ الثَّوْرَةِ، وَسَلَّمَهُ مَفَاتِيحِ الإِدَارَةِ فِي مَحَافَظَةِ الْحَسْكَةِ.
وَوَقَفَتْ رُوسِيَا بِالْتَّعَاصِدِ مَعَ الْصِّينِ (اِحْتِيَاطُ الْإِسْتِبَدَادِ الْعَالَمِيِّ) جَاهِزَتِينَ لِنَجْدَتِهِ سِيَاسِيًّا، قَبْلَ أَنْ تَنْجُدَهُ عَسْكُرِيًّا. وَهَكُذا،
سَخَّرَ النَّفَرُ تَحَالِفَاهُ الْإِقْلِيمِيَّةِ وَالْوَدَلِيَّةِ فِي اسْتِخْدَامِ القُوَّةِ الطَّلِيقَةِ ضَدَّ السُّورَيْنِ، وَسَهَّلَ السُّبُلَ أَمَامَ السَّلْفِيَّةِ الْجَهَادِيَّةِ لِتَعَزِّزَ
قوَّتها وَاخْتِرَاقَها مَنَاطِقَ سِيَطَرَةِ قَوْيِيِّ الثَّوْرَةِ الْمَدِينِيَّةِ، وَذَلِكَ لِتَقْوِيَضِ قَوْيِيِّ الثَّوْرَةِ الْمَدِينِيَّةِ، وَلِتَصْبِحَ الْهِيمَنَةُ لِلْقَوْيِيِّ الطَّائِفِيِّ
الْإِرَهَابِيَّةِ، وَلِتَشُوَّهَ وجْهَ الثَّوْرَةِ الْمَدِينِيِّ، وَلِيَصْبِحَ الْإِرَهَابُ وَالْتَّكْفِيرُ وَجْهَهَا الْبَارِزُ. لَقَدْ حَارَبَ النَّفَرُ عَلَى هَاتِينِ الْجَبَهَتِيْنِ،
فَكَانَ يَوْمًا أَسْوَدَ عَلَى السُّورَيْنِ فِي نَهَايَةِ عَامِ 2012، عَنْدَمَا أَعْلَنَ أَبُو مُحَمَّدُ الْجُولَانِيُّ تَبَعِيَّةَ جَبَهَةِ الْنَّصْرَةِ لِرَعْيِمِ تَنظِيمِ
الْفَاعِدَةِ، أَيْمَنِ الظَّوَاهِرِيِّ، وَيَوْمًا أَبِيَضَ نَاصِعًا عَلَى النَّفَرِ وَحَلْفَائِهِ، فَبَدَا الْغَرَبُ تَشَكُّكَهُ فِي الثَّوْرَةِ وَمَسْتَقْبَلِهَا، بِذِرْعِيَّةِ ذَلِكِ.
وَثَابَرَتْ إِسْرَائِيلُ عَلَى دِفَاعِهَا عَنْ بَقاءِ النَّفَرِ الْمَجْرَبِ لِدِيهَا نَصْفَ قَرْنِ!

وفي المقابل، لم تجد قوى الثورة المدنية ذات التوجه الديمقراطي المدني التي عانت من مشكلات القيادة، والتشتت والدعم، من يساندها دولياً بشكل فعال، يوازي الدعم الذي يلقاء النظام، إذ كانت الولايات المتحدة وحلفاؤها يبغون تغيير "سلوك النظام" لا النظام نفسه. ولا تريد إزعاج إيران من أجل صفقة النووي، فتركـت إدارة الرئيس الأميركي، باراك أوباما، المجال أمام صعود دور إيران الإقليمي، ودور روسيا في سورية والعالـم. وقد حافظـت إدارة الرئيس دونالد ترامب على هذا النهج ونمـته. وكان النظام مشـجـعاً ومسانـداً لتطور الموقف التـدـخـلي لهـذـهـ الـدوـلـ، تحت شـعـارـ محـارـبةـ الإـرـهـابـ، فـشـرـعـتـ مـوسـكـوـ بـحـربـ إـبـادـةـ لـلـسـورـيـينـ، فـيـ بـدـايـةـ عـامـ 2015ـ (مـعـمـئـنـةـ السـعـودـيـةـ وـبعـضـ الـدوـلـ الـعـرـبـيـةـ بـيـضـ كـلـمـاتـ لـفـضـ العـتـبـ بـشـأنـ تـحـجـيمـ دـورـ إـيرـانـ)، مـسـتعـينـةـ بـطـائـرـاتـهاـ فـيـ السـمـاءـ، تـعـاصـدـهاـ الـمـلـيشـيـاـ الشـيـعـيـةـ – إـلـيـرانـيـةـ عـلـىـ الـأـرـضـ، إـنـقـاذـاـ لـلـنـظـامـ الـذـيـ بـدـأـ بـالـتـقـهـرـ وـالـنـهـيـارـ، مـاـ لـبـثـتـ أـنـ اـنـفـتـحـتـ شـهـيـةـ الـلـوـلـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ عـلـىـ الـجـزـيـرـةـ السـوـرـيـةـ، مـعـتـمـدةـ عـلـىـ الـمـلـيشـيـاـ الـكـرـدـيـةـ، بـعـدـ أـنـ الصـفـتـ عـلـىـ اـسـمـهـ الـدـيمـقـراـطـيـةـ!

كان شعار الحرب على إرهاب تنظيم الدولة الإسلامية (داعش) الصوت الجامع للتدخل الدولي السافر في سوريا، للعب على مصيرها ومستقبلها. روج الروس الفيدرالية، واتفاقات تربط مستقبل سوريا بها أمداً طويلاً، وأعلنوا صراحةً، على لسان وزير الخارجية الروسي، سيرغي لافروف (وهو النسخة المعدلة على نحو أكثر بشاعة من وزير الخارجية الأبدي للاتحاد السوفيتي، أندريه غروميكو)، ما يقوله الغرب بالسر: لا حكم الأكثريية السنية لسوريا (وهو يعادل القول لا حكم للأرثوذكس الروسية)، فلافروف يفضل لهذه الأكثريية البقاء في القمّم. وفي المقابل، وضعت إدارة ترامب الجزيرة السورية والرقة، بما فيهما من بيروت، تحت سطوطها، وعملت، على غرار النظام، على تقاسم السلطة مع مليشيا فاشية كردية (أتباع أوجلان) تقوم تلك المليشيا، طبقاً لهذا، بإدارة المسائل اليومية، والهيمنة على سكان الجزيرة العرب، وأن تتولى الولايات المتحدة مسائل السيادة والإدارة العليا، مستغلة تعب الناس من إدارة "داعش" المتوحشة، ومن احتمال قodium النظام والمليشيات الإيرانية، أما حق تقرير المصير للشعب، فيتلعب به الجميع، قبل أن يستفيق السوريون للإمساك بمصيرهم.

هكذا، قاد النظام وحلفاؤه، في حربهم على الثورة السورية، وعلى السوريين، سوريا نحو حرب تدخلية دولية وإقليمية، صارت فيها سورية موضوعاً لها، بعد أن طبّق بنجاح، شعاره الكارثي

منذ بداية الثورة: الأسد أو نحرق البلد.. وفعلاً، حرق البلد ودمراه، وشرد سكانه داخل الحدود وخارجها، تسانده في ذلك

إيران وروسيا، بكل ما أتيتا من قوة ومصالح رخيصة، وانعدام للأخلاق، وركوب متعدد على الطائفية. وقد بزت أخيراً علاماتٌ تشير إلى أن الدول التي أصبحت لها اليد الطولى على مصير البلد، قد شرعت بتنافسٍ رخيصٍ على تقاسم الحصص، لتربيع فوق السوريين جميعاً، روسيا وأميركا وإيران، متجاهلةً ومنكرةً حقيقةً أن الشعب السوري ما زال في الميدان، على الرغم من الجراح والدماء والتهجير. ولم تتعظ من تجربة الربيع العربي، كما تصرّ على تجاهل حقيقة أن قصة الربيع العربي لم تنتهِ بعد، فلا تزال نسماتٌ ربيعيةٌ تهُلُّ في الأفق الغربي لبلاد العرب من السودان حتى الجزائر، حاملةً معها البشائر، مؤكدةً بإصرار أن هذا الربيع البائع لا يزال يبيث رياحينه في أرض العرب، وبين ناسها، تشد العزائم وتعزّز الأمل بالآتي، ولا تزال أصوات الحرية تضجّ أصداها في الميادين والحواري، تحوم كالشبح فوق رؤوس أنظمة القمع والطغيان، وقادرةً على التحول العربي الكبير نحو الديمقراطية والسيادة.

المصادر:

العربي الجديد